

تمدين المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5 هـ/10-11م)

-دوافع ومعايير التأسيس-

Civilization of the central Maghreb during the 4th-5th centuries
AH/10th-11th centuries AD
-Motives and criteria for establishment-



أمين كرطالي *

جامعة يحيى فارس المدينة

KARTALIAMINE@GMAIL.COM

تاريخ الاستلام: 2026/02/10 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

يندرج هذا البحث ضمن الدراسات المتعلقة بالتاريخ الحضاري والعمراني لبلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، حيث يُعنى بدراسة المدن التي أسستها دولتا صنهاجة بالمغرب الأوسط، ونعني بهما الدولة الزيرية بأفريقية والمغرب الأوسط ودولة بني حماد بالمغرب الأوسط، على غرار أشير، القلعة، المدينة، الجزائر، مليانة، بجاية. حيث تحدّث الباحث عن ظروف تأسيس هذه المدن، ومعايير التأسيس. وسنلاحظ أن المدن التي بناها الزيريون والحماديون في المغرب الأوسط بينت لعدّة أسباب منها الأسباب الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، وبذلك تكون قبيلة صنهاجة حين اضطلعت بأعباء الدولة قد أسهمت في عمارة المغرب الأوسط وتمدينه خلال الفترة الوسيطة.

الكلمات المفتاحية: قلعة بني حماد، صنهاجة، المغرب الأوسط، بجاية، أشير.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This research falls within the studies related to the civilizational and urban history of the countries of the Central Maghreb during the Middle Ages, as it is concerned with studying the cities founded by the two Sanhaja states in the Central Maghreb, and we mean by them the Zirid state in Ifriqiya and Central Maghreb and the Banu Hammad state in Central Maghreb, such as Achir, Al-Qalaa, Medea, Algiers, Miliana, Bejaia. The researcher talked about the circumstances of the founding of these cities, and the criteria for founding. We will notice that the cities built by the Zirids and Hammadids in central Maghreb were built for several reasons, including economic, military and social reasons. Thus, the Sanhaja tribe contributed to the construction and urbanization of central Maghreb.

key words: Qalaat Bani Hammad, Sanhaja, Central Maghreb, Bejaia, Achir.

المقدمة:

أسهمت دولتا صنهاجة (الزيرية والحمادية) في تمدن المغرب الأوسط من خلال اختطاط زعماءها مدنا كان لها دورٌ في تاريخ المغرب الأوسط السياسي والحضاري، وسأحاول أن أتطرق إلى هذه المدن، محاولا الكشف عن دوافع تأسيسها مع إبراز أهم المعايير التي توخّاها من اختطّ تلك المدن من الأمراء؟

• **مفهوم المدينة المستحدثة:**

قبل الخوض في لبّ الموضوع، يجدر الوقوف عند مصطلح جغرافي له دلالة تاريخية، وهو مصطلح "المدن المستحدثة"، حيث نجده في كتب التاريخ والجغرافيا، وقد ورد هذا اللفظ عند ياقوت الحموي في صدد حديثه عن مدينة قم التي قال عنها: (وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها) فالمدينة المستحدثة هي تلك التي تمّ اختطاطها وليس فقط تجديدها.

لقد استعمل البكري لفظ "استحدثها" عند حديثه عن مدينة المسيلية التي قال أنها مدينة مستحدثة. ونفس الشيء فعله الإدريسي الذي قال عن المسيلة أنها مدينة مستحدثة.

إنّ استحداث هذه المدن لا يعني أنّ الموقع كان خاليا من السكّان صفرا من العمران، ولكنّه كان تجمعا سكانيا هزيلا وعمرانا بدويا ساذجا، وفي الغالب تكون تلك المدن عبارة عن تجمع لقبيلة بربرية، بجوار حصن أو مستوطنة رومانية أو أنقاض مدينة نوميدية قديمة. ثمّ يأتي الاختطاط فتتسع رقعة المدينة وتكثر المرافق ويتزايد توطين جماعات من النّاس بداخلها أو حول أرباضها.

- دور دولتي صنهاجة في تمدن المغرب الأوسط:

بعد فتح جوهر الصقلي للقاهرة، ومنذ سنة (357هـ/967م)، عزم المعز لدين الله الفاطمي على ترك بلاد المغرب وفي سنة 361هـ 972م قام بتقليد بلكين بن زيري الصنهاجي أمر بلاد المغرب. وكانت الأسرة الزيرية قد بنت منذ أيام زيري مدينة أشير التي بناها زيري بنفسه ومليانة والمدية إضافة إلى مدينة الجزائر التي بناها بلكين بن زيري بأمره، وتطورت كلّ من أشير والجزائر ومليانة وبدرجة أقل المدية حتى أصبحت هذه المدن من أبرز مدن المغرب الأوسط¹.

فقد أسّس زيري بن مناد مدينة أشير سنة 324-935م، وتقع هذه المدينة على حوالي 150 كلم جنوبي -جنوبي شرقي الجزائر العاصمة، في جبل تيطري على حوالي 12 كم من عين بوسيف الحالية. و أعانه الخليفة الفاطمي القائم في تشييدها، واستجابة لطلبه أوفد إليه الخليفة الفاطمي الحرفيين ووضع على ذمّته مهندسا معماريا لا مثيل له في إفريقية، كما أمده بجميع المعدّات والمواد، لا سيّما الحديد، ولم ينس زيري ما قدّمه له القائم من صنيع، فتوطّد حلفه معه، وشارك معه في قمع ثورة أبي يزيد وفي فتح مدينة فاس، وكان أبو يزيد مخلد بن كداد².

أمّا بالنسبة لمدن الجزائر ومليانة ومدينة، فإنّ المؤرخ هادي روجي إدريس يميل إلى كون بلكين بن زيري لم يقيم بنائها من أساسها ويقول في ذلك: (ولعل الأمر يتعلق بتوسيع وتهيئة بعض التجمعات السكانية التي لم تبلغ بعد درجة المدن الكبرى، وأكثر ما يتعلق ببناء مدن جديدة من الأساس، ويبدو أن بلكين قد أقام بمليانة)³ ، وهذا الذي قاله روجي إدريس قد تؤكدّه عبارة "جدّدها" التي وردت عند البكري أثناء الحديث عن مدينة مليانة.

لكنّ كلام الهادي روجي إدريس يخالفه ما ورد عند ابن خلدون الذي يؤكّد على اختطاط بلكين لمدينة الجزائر عند قوله: (اختطّ ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة المدية⁴).

كانت هذه المدن الثلاث مجرد تجمعات سكانية من قبيل واحد كقبيلة مزغني بجوار موقع مدينة إيكوسيوم، وملايان بجوار زوكابار الرومانية، ومدونة غير بعيد عن موقع لامبديا. حيث ظهرت عمارتها بسيطةً دون مؤسّسات دولة تضبط شؤونها، إلى أن بادر بلكين بن زيري لاختطاطها وتنويع مرافقها وتوسيع عمارتها وضبط شؤونها، وبذلك ارتقت إلى مصاف المدن بعد أن كانت مجرد مجالات لقبيلة متغلبة.

بعد وفاة زيري بن مناد خلفه بلكين بن زيري الذي زاد من اهتمامه بمدينة الجزائر ولا يزال حيّ يُنسب إليه إلى اليوم وهو حي بولوغين، كما توسّعت في عهده مدينة أشير، ثمّ في أيّام المنصور بن بلكين⁵ بنيت مدينة القلعة والتي تحوّلت إلى مدينة مهمة، وتمكّن حمّاد من استغلال حصانتها لأجل التمرد على أخيه باديس الذي تولّى سنة (386هـ/996م) ، وبذلك تأسست دولة بني حمّاد التي صيّرت القلعة عاصمة لها، وبذل الحماديون جهدا كبيرا من أجل تمصير مدينتهم وتحويلها إلى مركز يقصده التجار.

لم يكن الفن المعماري ونمط البناء الزيري يخرج عن الفن الفاطمي الإفريقي، ورغم صلابة المواد التي بنيت بها مدن القلعة وأشير وغيرها فإنها سرعان ما تعرضت معالمها لمعاول الهدم وصروف التغيير التي محت آثارها وهدّدت أركانها، والتي لم تتمكن الترميمات المتلاحقة أن تخفف من وطأة النكبات المتعاقبة والوخيمة⁶.

• دوافع تأسيس المدن الصنهاجية ومعايير اختيارها:

أ- أشير:

تعدّ أشير أولى المدن التي بنتها قبيلة صنهاجة قبيل تأسيس الدولة الزيرية وبمباركة من الخليفة الفاطمي، وكانت تمثل مرحلة فارقة في تاريخ قبيلة صنهاجة وشاهدة على تحوّلها من طور القبيلة إلى مرحلة الدولة.

- دوافع التأسيس:

كان من الطبيعي أن يؤسس زيري مدينة أشير بعد أن ذاع صيته في جميع أنحاء المغرب وتأكد للجميع قوته، خصوصا بعد أن تزايد أتباعه فغادر محل إقامته الأول حين صار ضيقا، وكان موطنه الأول قريبا من برج حمزة (البويرة)، فاستقدم البنائين من حمزة والمسيلة وطبنة، وبعد أن أتمّ بناءها اجتهد في تعميرها فجلب إليها أعيان طبنة والمسيلة وحمزة⁷.

أي أنّ الدافع المعلن إلى تأسيس المدينة هو الرغبة في توطين أبناء قبيلته في مدينة تصلح دار ملك له ولقومه لكن هناك باعث خفيّ أشار إليه ياقوت الحموي وهو السموّ نحو الملك .

- معايير الاختيار:

أمّا عن المعايير التي أدّت إلى اختيار موقعها فيتمثّل في الحصانة التي اتّصف بها، و كونه مركز عبور ومرور أغلب الطرق الرئيسة قريبا منه، إضافة إلى جودة الأراضي المحيطة بأشير و توفر المدينة على عينين بداخلها تضمنان وجود المياه حتى ولو تعرضت لحصار.

ونبه ياقوت الحموي إلى حيوية موقع أشير فقال: (مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية في البر، كان أول من عمرها زيري بن مناد الصنهاجي... وضاق عليه وعلى أصحابه مكانهم فخرج يرتاد له موضعا ينزله فرأى أشير، وهو موضع خال وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره، فجاء بالبنايين من المدن التي حوله، وهي: المسيلة وطبنة وغيرها، وشرع في إنشاء مدينة أشير، وذلك في سنة 324 فتّمت إلى أحسن حال، وعمل على جبلها حصنا مانعا ليس إلى المتحصّن به طريق إلاّ من جهة واحدة تحميه عشرة رجال، وحمى زيري أهل تلك الناحية وزرّع الناس فيها، وقصدها أهل تلك النواحي طلبا للأمن والسلامة فصارت مدينة مشهورة)⁸.

إنّ نصّ ياقوت الحموي يفيدنا بأمرين مهمّين، وهو أنّ زيري هو أوّل من بنى المدينة، أي أنّ هناك من بناها ثانيا وثالثا، والأمر الثاني أنّ المدينة اعتمد فيها بدايةً على تحصينها الطبيعي فكانت بدون سورٍ يحميها ويحيط بجوانبها، واكتفى زيري بتأمين الجزء الشرقي منها بتكليف عشر رجال لمراقبته.

ب- جزائر بني مزغنة:

كانت جزائر بني مزغنى مجرّد مرسى مأمون له رأس يخترق البحر وهو رأس جبلي سفوحه الجنوبية خصبة ومتّصلة بسهل متيجة، وقد تنبأ بلكين بن زيري بأهميّة موقع هذه المدينة التي قدّر لها أن تصبح عاصمة المغرب الأوسط منذ الفترة العثمانية وإلى غاية اليوم.

- دوافع التأسيس:

كان الدافع من اهتمام بلكين بن زيري بأمر مدينة الجزائر هو محاولة ربط مدينة أشير بالسّاحل، والسيطرة على مرسى المدينة و المراسي التي حوله كمرسى شرشال غربا ومرسى الدجاج شرقا، وحماية سواحل المغرب الأوسط من أساطيل الأندلسيين، إضافة إلى الإشراف على التجارة الخارجية، و تأمين الأقوات والسلع عن طريق بناء المخازن.

- معايير الاختيار:

سبق وذكرنا أنّ مدينة الجزائر كانت مقرّاً لقبيلة بني مزغنى الصنهاجية وحوّلها تجمّعات قبلية من صنهاجة، فهي أرض موالية لدولة زيري بن مناد، فالمعيار البشري كان حاضراً، لأنّ تعمير المدينة بشرياً لن يحتاج إلى جلب سكانٍ من المدن الأخرى، فهذه المدينة تزخر بأعداد بشرية كبيرة. ناهيك عمّا تتوفر عليه مدينة الجزائر من أراض خصبة متصلة بسهولة متيجة، ومسطحات مائية من أودية وأنهار وعيون عذبة، فهي بذلك ستُحقق لا محالة الأمن الغذائي لسكانتها وللمدن الصنهاجية الأخرى.

لقد أشاد ابن حوقل بموقعها وما يتوفر فيه من موارد وقد عاصرها أيام بلكين بن زيري، فتحدث عن كثرة أسواقها إضافة إلى مواردها المائية من عيون كثيرة وطيبة، إضافة إلى باديتها الكبيرة، أشار ابن حوقل إلى أن أكثر أموال سكانها هي المواشي من البقر والغنم، إضافة إلى وفرة العسل والسمن والتين الذي كان ما يصدر منه إلى القيروان وغيرها، وتحدّث عن جزيرها التي كان يتحصن بها سكانها إذا داهمهم عدوّ، فكانوا في منعة وأمن ممّن يحذرونه ويخافونه⁹.

ت- مدينة مليانة:

بنيت مدينة مليانة بالتزامن مع مدينتي الجزائر والمدينة، وباشر بناءها بلكين بن زيري في أيام والده زيري بن مناد وبأمره.

- دوافع التأسيس:

كما هو الشأن بالنسبة لمدينة جزائر بني مزغنى فإنّ الدافع إلى تأسيس مدينة مليانة هو دعم الوجود الصنهاجي في المنطقة، فالمدينة كانت موطناً لقبيلة صنهاجية هي ماليان، لكنّ هذه القبيلة كانت تضايقها بعض القبائل الزناتية كقبيلة وريغان التي تمثل الطبقة الأولى من أمراء مغراوة- بني خزر.

رأى بلكين بن زيري ضرورة حماية هذه القبيلة وتثبيت الوجود الصنهاجي في المنطقة وتأمين الطرق الرابطة بين أشير نحو الساحل، وحماية المنطقة السهلية من غزو وهجمات القبائل الجبلية المناوئة التي تستوطن منطقة الونشريس وذلك باستغلال الحصن الروماني الموجود بها، لذلك كان بناء المدينة كما تكشف عنه الكتابات التاريخية فيما بعد سببا في تحكّم الصنهاجيين في الطرق المؤدية إلى المغرب الأقصى.

- معايير الاختيار:

كان المعيار الاستراتيجي واضحا في اختيار موقع مليانة، فحصانته من الأمور المسلم بها لوجودها في منطقة مرتفعة تعرقل مهمة الوصول إليها، واتّصالها بالجبل الذي يسمح بفرار المتحصّنين بها في حال سقوطها. أمّا المعيار البشري فيؤكّده توفرها على ساكنة موالية للدولة، إضافة إلى ذلك كانت مليانة تتوفر على حصن روماني سيستغله الزيريون دون تجشّم عناء بناء موقع جديد، كما أنّها مدينة غنية من حيث الأراضي الزراعية ووفرة الأقوات، ووجود الأنهار التي استغلّت لصناعة الأرحاء، وقد لخص ذلك البكري بقوله: (مدينة رومية فيها أنهار تطحن عليها الأرحاء، جدّدها زيري بن مّاد وأسكنها ابنه بلجين ، وهي عامرة)¹⁰.

ث- المدينة:

كانت المدينة موطنًا لقبيلة صنهاجية هي لمدونة، وهنا يجب أن نفرق بين المدينة وحصن المدينة، فحصن المدينة قد يكون موقع لامبديا Lampdia الروماني الذي يبعد بنحو 9 كيلومترات¹¹، أمّا قصبة المدينة فكانت تجمعاً لقبيلة لمدونة الصنهاجية، ثمّ بناها بلكين بن زيري .

- دوافع التأسيس:

كان الدافع الأول فيما يبدو هو تثبيت الوجود الصنهاجي بالمنطقة ودعم استقرار قبيلة لمدونة في هذه المواطن من أجل تأمين الطرق بين أشير والساحل ومراقبة تحركات قبائل زناتة بجبل الونشريس.

- معايير الاختيار:

كان المعيار الاقتصادي مساهما في اهتمام بكين بن زيري بها، وذلك لكثرة مياهها ووفرة أقواتها، كما أنّ توسطها بين الأطلس البلدي وجبال الونشريس أكسبها ميزة استراتيجية وجعلها نقطة مراقبة مهمّة إضافة إلى إشرافها على الطريق المؤدي إلى المسيلة و إقليم الزّاب. لذلك ذكرها البكري في صدد حديثه عن الطريق بين أشير وجزائر بني مزغني فقال: (من أشير إلى المدينة وهي بلد جليل قديم). وقوله بلد جليل قديم يؤكد قدم التواجد السكاني في المنطقة وعظمة الآثار التي تركها الأولون، وذلك لقرىها من موقع مدينة لمباديا.

ومع ذلك فإن المدينة لم تكن محلّ اهتمام كبير منذ أيام الصنهاجين، ويكفي أنّ إشارة البكري إليها لا توحى بعظمتها آنذاك، فلعلّ صعوبة المسالك إليها، ووقوعها بين مرتفات جبلية محيطة بها جعلها لا تنال حقّا من التمدّن، فظلّ دورها هامشيا إلى أن جاء الزيانيون فبدأت تنال مكانتها الطبيعية، ثمّ بعد ضعف الزيانيين صارت تابعة لأمير تنس، وفي الفترة العثمانية أصبحت عاصمة بايلك التيطري¹².

ج- قلعة أبي الطويل أو قلعة بني حماد:

كانت المنطقة التي بنيت بها القلعة مقرا لقبيلة عجيسة، وهم من بطون البرانس، وكانوا مجاورين لصنهاجة، وقد ناصروا أبا يزيد صاحب الحمار الثائر على الفاطميين الذي لجأ إليهم واعتصم بقلعتهم التي كانت تعرف بقلعة كيانة، وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد سيطر بنو زيري على المنطقة، و بسبب صراعهم ضدّ زناتة قرّر حمّاد أن يبني

مدينة القلعة فاخنتها بينهم¹³. ونزلها ووسّع خطتها واستبحر عمرانها. وكانت حاضرة ملك آل حماد¹⁴.

- دوافع التأسيس

إنّ الدافع لبنائها كما أفصح عنه حماد لابن أخيه باديس هو التصدي لخطر زناتة وتحصين منطقة التيطري من هجماتهم المتكررة، وما يؤكد ذلك هو أنّ حماد قد بدأ في تأسيس المدينة بعد انتصاره على المعز بن زيري بن عطية وذلك سنة 398هـ-1007-1008 بعد أن أذن له باديس بتأسيس قلعة بني حماد التي كانت تسمى أيضا قلعة أبي طويل.

و حسب ياقوت الحموي فإنّ تأسيس القلعة بدأ حوالي 370هـ/980-981م أيام بلكين بن زيري، وهو ما صرح الهادي روجي إدريس بأنّه ليس هناك ما يدعوه لرفض هذا الإدعاء¹⁵. وربما ياقوت الحموي يقصد إقامة مركز عسكري بسيط وليس بناء المدينة وتمصيرها.

هنا يجب أن ننوّه بنقطة مهمّة وهي أنّ الصنهاجيين بعد أن كانوا يبنون المدن التي تقع في المناطق التي هي ضمن مجالاتهم كالمدينة ومليانة ومزغنى، انتقلوا إلى البناء في الأماكن التي هي في الأصل مواطن خصومهم الزناتيين، وذلك بعد أن تمّ طرد زناتة نحو المغرب الأقصى وجنوب المغرب الأوسط والأدنى إلى مواطن القفر بالصحراء.

فبناء القلعة يمثل استراتيجية جديدة وهي بداية توسعة المجال، وإعادة تشكيل الخارطة القبلية، لذلك نقل حماد إلى القلعة (أهل المسيلة وأهل حمزة وساكنة جراوة بالمغرب الأقصى) كما خرّب هذه المدن كي لا يعود إليها أهلها وحتى يعطل قواعد خصومه. هكذا تم بناء المدينة وتمصيرها على رأس المائة الرابعة، فاستقر حماد في هذه المدينة المنيعة التي كانت تسمح له بمراقبة القبائل الزناتية بسهولة، لكنّه كان من حين إلى آخر يزور أشير وبذلك أصبح يشرف على مدينتين حصينتين في المغرب الأوسط فعظم شأنه¹⁶.

ويوضح فرديناند جوتييه أن حمادا قد راعى في مكان اختيار القلعة أن يؤدي وظيفة عسكرية، تحميه من أعدائه القادمين من الغرب (زناتة) ومن أعدائه الذين يمكن أن يأتوا من الشرق (الزيريين)¹⁷. وبعد أن شرع حماد في بناء القلعة سنة 398 هـ/1007 م، أحاطها بسور من الحجارة سنة 405 هـ-1014م وذلك بإعانة أخيه باديس¹⁸.

بعد أن لمس حماد من نفسه القوة، بادر إلى الاستقلال عن الزيريين، وتأسيس دولة بالمغرب الأوسط. وهو ما يؤكد أنّ الدافع الحقيقي لبناء المدينة هو طموح حماد ورغبته في الاستقلال عن باديس، وبناء حاضرة ملك، يجعلها قاعدة عسكرية للتوسع غربا وملاذا آمنا يلجأ إليه إذا جاءت قوات ابن أخيه باديس¹⁹.

- معايير اختيارها:

هناك عدّة مميزات أهلت القلعة لتكون عاصمة لحماد، فموقعها كان حصينا، وكان لا يقل قيمة استراتيجية عن موقع أشير، فالمدينة توجد في سند جبل كيانة المسمى أيضا جبل تاقرست (قربوس السرج) الذي التجأ إليه الثائر أبو يزيد، و جبل كيانة هو جبل عظيم يمتاز بمناعته وبإطلالته على بحيرة الحضنة واتصاله بسهول فسيحة، وسمو علوه وصعوبة ارتقائه، يتصل الجبل المشرف على المدينة من أعلاه ببسيط من الأرض يعتبر المنفذ الذي يمكن منه أن تمتلك القلعة، وتقع المدينة بين أكم وأفواز، وقد استدار سورها فحوى جميع جبل عجيسة المعروف الآن بالمعازيد طولا وعرضا²⁰.

كما أنّ وجود أطلال وبقايا بنايات رومانية بالمنطقة جعلت حماد لا يجد عناء في توفير مواد بناء مدينته من أعمدة وبلاطات وغيرها، وهو ما تدل عليه تلك الحجارة الضخمة التي تنتمي إلى السور القديم، وكما تدل على ذلك فسيفساء جميلة من الرخام عثر عليها بيليه خلال حفريات سنة 1908 على بعد 700 متر جنوب المدينة، ومن المعتقد أن قلعة رومانية كانت تقوم في نفس موقع القلعة²¹.

فضلا عن ذلك فقد كانت القلعة تشرف على أهم الطرق التجارية من القيروان إلى سجلماسة، ومن مدن الزاب إلى سواحل ومراسي مرسى الدجاج وجزائر بني مزغنة وتنس و مستغانم ووهران. لذلك قال عنها البكري:

(هي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقرّ مملكة صنهاجة²²).

يتحدث الإدريسي عن مميزات أخرى كانت للقلعة جعلتها تحظى باهتمام حمّاد، فهي أرض خصيبة و تتوفر فيها الحنطة، إضافة إلى وفرة المراعي التي جعلت لحومها رخيصة و طيبة وسمينة²³.

ويجب أن لا نغفل طيب هواء القلعة وملاءمته لتخزين الأقوات، لا سيما الحنطة، التي كانت تبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير ، ناهيك عما تجود به أرضها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة، واتّساع المراعي حولها التي تصلح فيها السوائم والدواب، أي أنّها كما وصفها الإدريسي: (بلاد زرع وخصب وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة)²⁴.

لكنّه حسب رأيي فإن موضع مدينة القلعة كان فيه عيب وحيد وهو عدم وجود مصدر مياه داخلي، حيث كان يتزوّد من الماء عبر ماء مجلوب من الخارج، لذلك كان فيها صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد²⁵.

ح- بجاية:

تعتبر مرحلة بجاية عن تطوّر ملحوظ في الذهنية الحمادية، فبعد أن كان تركيز الزيريين وكذا الحماديين على الحصون الواقعة في منطقة التيطري والممتدة من المسيلة إلى جزائر بني مزغنة ومرسى الدجاج، بدأ تركيزهم ينصبّ على بناء مدينة تضاهي مدينة المهديّة التي سكنها المعز بن باديس وأخذها ابنه تميم حاضرة دولته بعد خراب القيروان.

ـ الدافع إلى تأسيس المدينة:

اختلفت الآراء حول دوافع تأسيس المدينة فبين من يرى أنه بسبب الخوف من هجمات الهلاليين وما أحدثوه في القلعة بعد انتصارهم في موقعة سيبية سنة 457هـ/1064 ضد قوات الناصر بن علناس، وهو الرأي المستمد من روايات ابن الأثير والنويري وصاحب كتاب الاستبصار²⁶ و بعض المتأخرين، وقد قاله بهذا الرأي عدد من المستشرقين وأكّده الهادي روجي إدريس²⁷ لكن هذا القول ضعيف جدا، فرواية النويري وابن الأثير تتحدث عن بناء بجاية عقب هزيمة سيبية لكنّها لا تقول أنّ هذا العمل هو سبب لتلك الهزيمة، فغارات الهلاليين لم تبدأ تحوم حول أطراف القلعة إلّا في عهد المنصور ابن الناصر الذي انتقل إلى بجاية تمّ سنة 483 هـ، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله: وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحتها والعيث في نواحيها، وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحليهم وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان أوعار، فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دارا لملكه، وجدّد قصورها وشيّد جامعها، وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وتأنق في اختطاط المباني وتشبيد المصانع واتّخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين²⁸، وحتى في أيام المنصور بن الناصر فالقلعة بقيت محلّ اهتمام الحماديين، حيث يضيف ابن خلدون قائلا: (فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام)²⁹. ونستفيد من كلام ابن خلدون أنّ فترة عيث الهلاليين بالقلعة بدأت عهد المنصور وليس في أيام الناصر، أي بعد اختطاط مدينة بجاية. كما أنّ هذا التبرص لم يكن بحجم ما حدث في القيروان وذلك لحصانة القلعة، كما أنّ هذا العيث لم يمنع المنصور من البناء بها وتعميرها.

أمّا عبد الحليم عويس فيقول أنّ سبب تفكير الحماديين في بناء هذه المدينة هو أنّ الناصر بن علناس الذي تولى الأمر بعد قتله للأمير السابق بلقين بن حماد قد كره مجاورة

بني حماد الذين يميلون إلى بلقين في القلعة، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة إثنا عشر ألف فارس³⁰. بينما يميل رشيد بوروبة إلى أنّ الدافع الحقيقي لبناء بجاية هو طموح الناصر بن علناس ورغبته في الاستيلاء على المهدية من البحر بعد أن أدرك صعوبة الغزو البري فبحث عن مرسى مأمون ووقع اختياره على مرسى بجاية³¹.

هذا الرأي هو الذي توحى به رواية النويري الذي سرد لنا قول ابن البعيع للناصر محرّضا على تميم بن المعزّ:

وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة، فاجعلها لك مدينة، يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية³².

- معايير الاختيار:

بخصوص المعايير التي أهلت بجاية لتحوز هذا الشرف فهي كثيرة، ويمكن أن نستشقه من خلال ما أورده النويري وابن الأثير حول قصة بنائها، والتي أشارت إلى ابن البعيع رسول تميم بن المعز بن باديس إلى الناصر بن علناس، الذي أرشد الناصر بن علناس إل موقعها، ونصحها باتخاذها حاضرة ملك لقرىها من البحر واتصالها بالجبل ومرساها المأمون، ووفرة الخشب والحديد .

فبجاية كانت تمثل طريقا مهما من طرق المواصلات وتمتاز بمرفأ محمي على أحسن وجه³³، كان يحيط بها البحر شرقا وغربا وشمالا فهي تشبه إلى حدّ بعيد موقع المهدية، إضافة إلى إشراف جبل المدينة على طريقين مهمّين هما الطريق الغربية المعروفة باسم المضيق والتي كانت محاذية لضفة الواد الكبير والطريق الجنوبية المؤدية إلى القلعة تمر من مجازات مرتفعة وصعبة المنال، فستكون المدينة الجديدة حينئذ بمنأى عن غارات العرب³⁴. وأيضا فالمنطقة كانت غنية بالحديد وهي مساحة غاية تسمح بإنشاء الأسطول الذي يحتاج إليه الناصر بن علناس لتحقيق مشروعه. كما أنّ مناخها قد راق للناصر بن

علناس، و موقعها يجعلها على اتصال بأهم المدن كسطيف وباغاية وقلعة بشر وتيفاش وقلمة وتبسة ودور مدين والقصرين وطبنة³⁵.

ونقرأ في رواية النويري أنّ ابن البعبع حين وصل إلى بجاية وهي حينئذ منزل ينزله رعية البربر فنظرها وتأملها، وقال في نفسه: (هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن)، ويضيف النويري أنّ ابن البعبع حين اجتمع بالناصر قال له محرّضا على تميم بن المعزّ: (وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة، فاجعلها لك مدينة، يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية³⁶).

وإضافة إلى هذه المعايير هناك العامل البشري فحسب ابن خلدون أنّ المنطقة كانت لقبيلة من صنهاجة تعرف ببجاية لذلك نلاحظ أنّ الناصر أول ما بنى هذه المدينة أسقط الخراج عن ساكنتها³⁷. وإلى هذه القبيلة كان ينسب المرسى الذي أشار إليه ابن حوقل في منتصف القرن الرابع بقوله: (إلى بجاية مرسى ومنه إلى مرسى بنى جناد)³⁸.

ومن المعايير أيضا التي راعاها الناصر بن علناس هناك المعيار الاقتصادي المتمثل في وفرة الأقوات وكثرة ما يردها عن طريق البحر من السلع والبضائع، وما تتوفر عليه من مياه الأودية والعيون والأنهار. وقد صفها البكري عند حديثه عن المراسي فقال: (مدينة بجاية أولية أهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة)³⁹.

ويعدد الإدريسي ما يتوفر في بجاية من المواد الأولية والموارد فذكر جُمْل من النبات المنتفع به في صناعة الطب :

مثل شجر الحوض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطاريون الكبير والرزاوند والقسطون والإفستين أيضا وغير ذلك من الحشائش... ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد.... الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزيت البالغ الجودة والقطران وبها

معادن الحديد الطيب موجودة.... وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبل جرجرة وهو نهر عظيم⁴⁰.

وبهذا نكون قد أشرنا إلى المدن التي استحدثها زعماء دولتي صنهاجة بالمغرب الأوسط، وتطرقنا للميزات المدن الصنهاجية وغطها المعماري، وأهم المراحل التي عرفت هذه العمارة وما طرأ عليها، كما بينّا أسباب ودوافع تأسيس تلك المدن وأهم المعايير التي روعيت عند اختيار موقعها.

قائمة المصادر والمراجع:

- محمد، ابن حوقل. صورة الأرض. بيروت: دار صادر، 1938م.
- أحمد، ابن عذارى. البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. تحقيق: بشار عواد ومحمود بشار عواد، ط1. تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013.
- أحمد، بن عبد الوهاب النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق عبد المجيد ترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية، 1423.
- أحمد، توفيق المدني. المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت.
- أمين، كرطالي. سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني. أطروحة دكتوراه علوم، الجزائر: كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر02، 2017-2018م.
- حيزية، حيتامة. رثاء القيروان بين ابن رشيق وابن شرف-دراسة موازنة. ماجستير، جامعة بسكرة: كلية الآداب واللغات، 2014-2015م، (
- رشيد، بوروبة. الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1977.

عبد الحليم، عويس. دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري. ط2، القاهرة: دار الصحوة، 1991م.

عبد الرحمن، ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت: دار الفكر ، 2000م.

عبد الرحمن، الجيلالي. تاريخ المدن الثلاث-الجزائرالمدينة مليانة-. ط1 ، الجزائر: دار الأمة، 2007.

عزيز، أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية. ترجمة: أمين توفيق الطيبي، القاهرة: الدار العربية للكتاب، 1980.

فاتن، ادريس. "تاريخ مدينة المديّة ونسيجها العمراني إبان الحكم العثماني". مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد2 (2021): صص270-289.

محمد، ابن حمّاد. أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . تحقيق: التهامي نقرة، وعبد الحليم عويس، القاهرة: دار الصحوة، القاهرة، 1980.

محمد، بن عبد الله بن الخطيب. أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام. تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964.

مؤلف مجهول . الاستبصار في عجائب الأمصار. بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م.

محمد، الإدريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1409هـ.

الهادي، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية-تاريخ إفريقية في عهدي بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م-. ترجمة: حمّادي الساحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.

ياقوت، الحموي. معجم البلدان. ط2، بيروت: دار ، 1995 م.
أبو عبيد الله، البكري. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. تحقيق: حمّاه الله ولد السالم، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2013م.

1 - عبد الرحمن الجليلي، تاريخ المدن الثلاث-الجزائرية المديّة مليانة-، ط1 (الجزائر: دار الأمة، 2007). ص245.

2 - رشيد بورويّة، الدولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1977)، ص9.

3 - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية-تاريخ إفريقية في عهدي بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م-، ترجمة: حمّادي الساحلي، ط1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج1 ص61.

4 -ابن خلدون، تاريخ، ج6 ص204.

5 - المنصور بن بلكين: ولي سنة 274هـ، وتوفي سنة 286هـ. ينظر: أحمد ابن عذارى، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد ومحمود بشار عواد، ط1، (تونس: دار الغرب الإسلامي 2013)، ج1 ص239.

6 -روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2 صص331-337.

7 -روجي ادريس، الدولة الصنهاجية، ج1 ص45.

8 -ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1 ص203.

9 - ابن حوقل، صورة الأرض (بيروت: دار صادر، 1938م، ج1 ص76.

10 - أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق: حمّاه الله ولد السالم، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2013م، ص116.

11 - فاتن ادريس، " تاريخ مدينة المديّة ونسبها العمراني إبان الحكم العثماني"، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد2 (2021)، ص272.

12 -روجي ادريس، الدولة الصنهاجية، ص276.

13 - قال ابن حماد: (وكان بناها وسورها لبني حماد مملوك لهم رومي يقال له بونياس). محمد ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نفرة، وعبد الحليم عويس، (القاهرة: دار الصحوة 1980)، ص73.

- 14 - ابن خلدون، تاريخ، ج6 ص192.
15 - روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2 ص98.
16 - رشيد بورويبة، الحمادية، ص21.
17 - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، (القاهرة: دار الصحوة، 1991م، صص90-91).

- 18 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج1 ص99.
19 - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، ص89.
20 - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، ص92.
21 - دولة بني حماد، صص90-91.
22 - البكري، المغرب، ص134.
23 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1 ص255.
24 - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج1 ص261.
25 - مؤلف مجهول، الاستبصار، صص168-170.
26 - مؤلف مجهول، الاستبصار، صص128-131.
27 - روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2 صص107-109.
28 - ابن خلدون، تاريخ، ج6 ص232.
29 - ابن خلدون، تاريخ، ج6 ص232.
30 - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صص100-101.
31 - رشيد بورويبة، الحمادية، ص68.
32 - أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، (بيروت: دار

الكتب العلمية 1423، ج24، صص124-125.

- 33 - روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2 صص107-111.
34 - روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1 ص316.
35 - الإدريسي، نزهة المشتاق، مج1 صص259-260.

- ³⁶ -النويري، نهاية الأرب، ج24، صص124-125.
- ³⁷ -ابن خلدون، تاريخ، ج6 صص231-232.
- ³⁸ -ابن حوقل، صورة الأرض، ج1 ص76.
- ³⁹ -البكري، المغرب، ص172.
- ⁴⁰ -الإدريسي، نزهة المشتاق، مج1 صص259-260)